

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الروم

﴿الْعَلَمَ ١﴾ غَلَبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾

هذه بداية سورة الروم المكية، وهي تخبر عن معركة وقعت بين الفرس المجوس، وبين الروم أهل الكتاب، وقد غلب فيها الفرس الروم، وفرح بذلك المشركون.

كما تبشر هذه البداية بمعركة أخرى تقع بين الروم والفرس؛ بعد ذلك يغلب فيها الروم الفرس، ويفرح بذلك المؤمنون.

و ﴿الْعَلَمَ﴾ هي واحدة من هذه الحروف التي افتتحت بها بعض السور؛ لجذب الاهتمام، ولفت الأنظار، حتى يُسمع ما بعدها من القرآن.

﴿غَلَبَتِ الرُّومُ﴾ من فارس ﴿فِي أَدْنَى﴾ أقرب ﴿الْأَرْضِ﴾ إلى العرب، وهي بلاد الشام.

﴿وَهُمْ﴾ أي: الروم ﴿مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾ وهزيمتهم أمام الفرس ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ الفرس ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ في مدة لا تتجاوز العشر سنوات؛ إذ البضع: هو من الثلاث إلى العشرة.

و ﴿لِلَّهِ﴾ وحده ﴿الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ أي: من قبل النصر ومن بعده، وكذلك من قبل كل شيء ومن بعده.

﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم ينتصر الروم أهل الكتاب، على الفرس المجوس، وتحقق البشارة ﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ * يَنْصُرُ اللَّهُ ﴿لأنهم والروم يؤمنون بالله، وهؤلاء أهل الكتاب، وهؤلاء مثلهم أهل الكتاب، والمعركة أصلاً بين فريق الكفر وفريق الإيمان، سواء بين الروم والفرس، أو بين المسلمين والمشركين، لذلك فرح المشركون بانتصار الفرس على الروم.﴾

على أية حال ﴿يَنْصُرُ﴾ الله ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده، على من يشاء منهم، ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب لأعدائه ﴿الرَّحِيمُ﴾ العاطف على أوليائه. كانت هذه البشارة..

﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٦﴾ يعني: أن نصر الروم على الفرس وعد من الله و ﴿لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أبداً. وقد تحقق هذا الوعد بالفعل، وانتصر الروم على الفرس، في ذات اليوم الذي انتصر فيه المسلمون على المشركين في بدر، ورد الله شماته المشركين بالمسلمين. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ صدق وعد الله. وما ذلك إلا لأنهم:

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ ﴿٧﴾ أي: أن الذين لا يعلمون صدق وعد الله، ولذلك لا يلتزمون بشعره، ﴿يَعْلَمُونَ﴾ فقط ﴿ظَاهِرًا﴾ واحداً ﴿مِّنْ﴾ ظواهر ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وشغلوا وفتنوا به.. ﴿وَهُمْ﴾ في ذات الوقت ﴿عَنِ﴾ معرفة ﴿الْآخِرَةِ﴾ والاستعداد لها بالعمل الصالح ﴿هُمْ غَفْلُونَ﴾.

هؤلاء الذين غفلوا عن الآخرة.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ ﴿٨﴾

يعني: ﴿أ﴾ غفلوا أيضًا ﴿وَلَمْ يَنْفَكُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ وهي أقرب شيء إليهم، ولو أنهم تفكروا؛ لعرفوا أنه ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ عبثًا بل ما خلق الله ذلك كله ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: لغاية وحكمة هي الحق كله، والصواب كله.

﴿و﴾ كذلك ﴿أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ تنتهي عنده الخلائق.

وما دام هذا الخلق ليس عبثًا، بل لغاية، ولأجل محدد ومعلوم عند الله تعالى؛ فإن القادر على ذلك: قادر على البعث، وبذلك فالبعث حق، ولقاء الله حق، ومع هذا الوضوح: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بالبعث ﴿لَكَفِرُونَ﴾ منكرون.

هؤلاء الذين ينكرون البعث، يهددهم الله بقوله ..

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظْلَمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾﴾

يعني: ﴿أ﴾ قعدوا ﴿وَلَمْ يَسِيرُوا﴾ بأبدانهم، أو بعقولهم ﴿فَيَنْظُرُوا﴾ ويتفكروا ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ في الدنيا من الهلاك..؟ مع أنهم ﴿كَانُوا﴾ أي: الذين من قبلهم ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ كعاد وثمود ﴿وَأَثَارُوا الْأَرْضَ﴾ حرثوها وزرعوها وأفادوا منها ﴿وَعَمَرُوهَا﴾ بالبنيان وغيره ﴿أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي: أكثر مما عمرتموها أنتم...!!

﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ يدعونهم إلى الإيمان بالله، وتوحيده، وعبادته، وقد أيدهم الله ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وهي المعجزات الواضحة في صدق نبوتهم، ولكنهم كذبوهم، فأخذهم الله وأهلكهم ﴿فَمَا كَانُوا لِيُظْلَمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وهذا في الدنيا.

﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ هؤلاء ﴿الَّذِينَ اسْتَوَىٰ﴾ هي ﴿الْأَسْوَىٰ﴾ أي: جهنم، وذلك:

في الآخرة، بسبب: ﴿أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على توحيدهِ وقدرته ﴿وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

هذا، ولما بين تعالى أن عاقبة هؤلاء المكذبين المستهزئين هي جهنم في الآخرة، أخذ يقدم الأدلة على إثبات هذه الآخرة التي إليها يبعثون، وفيها يحاسبون، فقال سبحانه:

﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١١)

أي: أن من قدر على الخلق وخلق، قادر على الإعادة وسيعيد ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازي كل واحد بما عمل فاعملوا خيراً، واستعدوا..

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (١٢) ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاؤُاْ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ (١٣)

يعني: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ هذه ﴿يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ يتحIRON، ويكشبون. ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ﴾ أي: وليس لهم في هذا اليوم العصيب ﴿مِّنْ شُرَكَائِهِمْ﴾ الذين عبدوهم في الدنيا ﴿شُفَعَاؤُاْ﴾ يشفعون لهم في تخفيف العذاب عنهم. خاصة: ﴿و﴾ هم الذين ﴿كَانُوا﴾ بسبب ﴿شُرَكَائِهِمْ﴾ هؤلاء ﴿كَافِرِينَ﴾ بالله. أيضاً: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَ يَفْرَقُونَ﴾ (١٤) ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ (١٥) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ (١٦)

يعني: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ هذه ﴿يَوْمَ يَفْرَقُونَ﴾ أي: يتفرق الناس - باعتبار إيمانهم بالبعث، واستعدادهم له قبل ذلك - إلى مسلمين وكافرين، وهذه هي الفرقة التي لا لقاء بعدها أبداً.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ في الدنيا: ﴿فَهُمْ﴾ اليوم ﴿فِي رَوْضَةٍ﴾ أي: في جنة ﴿يُحْبَرُونَ﴾ يُسرون ويُنعمون.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسله ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على وجودنا ووحدانيتنا في الدنيا: ﴿فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ مقيمون، لا يغيبون عنه، ولا يخفف عنهم.

ولمَّا بَيَّنَّ ربنا - كما عرفنا - أنه في يوم القيامة، يتفرق الناس إلى فريقين: ناجٍ، وهالك. أتبع ذلك بذكر ما يوصل إلى هذه النجاة، ويُنجي من هذا الهلاك، فقال تعالى:

﴿فَسُبْحَنَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾

﴿فَسُبْحَنَ اللَّهِ﴾ أي: نزهوا الله تعالى عن كل نقص وعيب، حيث له عز وجل كل كمال في ذاته، وصفاته وأسمائه، وهذا التنزيه يتناول:

التنزيه بالقلب: وهو اليقين الكامل، والاعتقاد الجازم.

والتنزيه باللسان: وهو الذكر الحسن.

والتنزيه بالأركان: وهو العمل الصالح.

حيث إن الإنسان إذا اعتقد شيئاً بقلبه ظهر على لسانه.

فإذا قال: ظهر صدقه في مقاله، وظهر في أفعاله، فإذا فعل: ظهر صدقه في أحواله. ومن المعلوم أن الصلاة أفضل الأعمال، ولذلك: نوه على أهمية التنزيه في هذه الأوقات.

﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ في صلاة المغرب والعشاء، ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ في صلاة الفجر، ﴿وَعَشِيًّا﴾ في صلاة العصر، ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ في صلاة الظهر، ومن المعلوم أيضاً أن قوله ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إشارة إلى أن هذا التسبيح لنفع العباد ومصلحتهم، إذ هو الغني سبحانه عن العالمين.

وهو سبحانه الذي:

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾

أي: آمنوا به، ونزهوه عن كل نقص، وصفوه بكل كمال؛ فهو القادر على بعثكم بعد

موتكم، وحسابكم ومجازاتكم على أعمالكم في يوم القيامة، وهو الذي ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ﴾ كالحيوان من النطفة، أو الدجاجة من البيضة.

﴿و﴾ هو الذي ﴿يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ على العكس مما سبق.

﴿و﴾ هو الذي ﴿يُحْيِي الْأَرْضَ﴾ بالإنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بعده.

﴿و﴾ كذلك أنتم ﴿تُخْرَجُونَ﴾ من قبوركم للبعث والحساب.

والدلائل على قدرة الله عز وجل على هذا البعث كثيرة، ومنها ما يلي:

يقول الله تعالى:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ ﴿٢٠﴾

هذه أول الدلائل التي يسوقها المولى هنا، ونلاحظ ابتداءً:

أولاً: جملة ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ سوف تتكرر هنا ست مرات.

ثانياً: هذه الآيات تتعلق بقدرة الله في الأنفس والآفاق.

ثالثاً: ذَكَرَ اللهُ تعالى في الأنفس من الآيات أمرين أصليين، وهما:

﴿خَلَقَكُمْ﴾ و ﴿خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [الروم: ٢١]، يعني: الذكر، والأنثى.

وأمرين لازمين، وهما: ﴿أَخْتَلَفُ أَلْسِنَتَكُمْ﴾، واختلاف ﴿أَلْوَانِكُمْ﴾ [الروم: ٢٢].

وأمرين عارضين، وهما: ﴿مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ﴾، ﴿وَأَبْغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [الروم: ٢٣] في

النهار.

رابعاً: ذكر الله تعالى في الآفاق من الآيات.

أمرين أصليين، وهما: ﴿السَّمَوَاتِ﴾ و ﴿الْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٢].

وأمرين لازمين، وهما: قيام السماء بغير عمد، وقيام الأرض دون سقوط.

وأمرين عارضين، وهما: ﴿الْبَرْقِ﴾ [الروم: ٢٤] ونزول المطر.

وتعالوا بنا إلى استعراض هذه الآيات سريعاً.

أولاً: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ سبحانه في الأنفس، الدالة على قدرته وتوحيده.

﴿أَنْ خَلَقَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿مِنْ تُرَابٍ﴾ باعتبار أصلكم، أو غذائكم ﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ على وجه الأرض، تنصرفون في أمور حياتكم ومعاشكم.

ثانيًا: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢١)

يعني: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ سبحانه في الأنفس الدالة على قدرته، وتوحيده.

﴿أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: من: جنسها، ليكون الألف، وليس التنافر.

﴿و﴾ كذلك ﴿جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ تفيض منهما على أهل الدنيا جميعًا.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿لَآيَاتٍ﴾ بينات واضحات ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في صنع الله.

ثالثًا: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ السِّنِينَ وَالْوَنُكُمُ﴾
﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٢٢)

يعني: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ سبحانه في الآفاق، وفي الأنفس الدالة على قدرته، وتوحيده
﴿خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بهذا النظام البديع الفريد العظيم.

﴿و﴾ كذلك ﴿أَخْلَفَ السِّنِينَ﴾ لغاتكم المتعددة ﴿وَالْوَنُكُمُ﴾ المتباينة إن في ذلك المذكور ﴿لَآيَاتٍ﴾ بينات واضحات ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾.

رابعًا: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ﴾ (٢٣)

يعني: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ سبحانه في الأنفس.. الدالة على قدرته، وتوحيده.

﴿مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: منامكم بالليل، وابتغاءكم أي: طلبكم الرزق من فضله بالسعي في ذلك بالنهار.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ﴾ سماع تدبر وفهم.

خامسًا: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٢٤)

يعني: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ سبحانه في الآفاق الدالة على قدرته، وتوحيده أنه ﴿يُرِيكُمْ الْبَرْقَ﴾ في السماء ﴿خَوْفًا﴾ من الصواعق ﴿وَطَمَعًا﴾ في نزول المطر بعده.

﴿و﴾ كذلك ﴿يُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: السحاب ﴿مَاءً﴾ وهو المطر ﴿فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ﴾ بالإنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ إن في ذلك المذكور ﴿لَآيَاتٍ﴾ بينات واضحات ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: يستعملون عقولهم.

سادسًا: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ (٢٥)

يعني: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ سبحانه في الآفاق الدالة على قدرته، وتوحيده.

﴿أَنْ تَقُومَ﴾ أي: قيام ﴿السَّمَاءِ﴾ هكذا بغير أعمدة.

﴿و﴾ كذلك ﴿الْأَرْضُ﴾ ثابتة دون أن تسقط في هذا الفراغ الكوني الرحيب الرهيب، وذلك ﴿بِأَمْرِهِ﴾ وتدبيره، وقدرته، سبحانه.

﴿ثُمَّ﴾ في يوم القيامة ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ أيها البشر، وأنتم في قبوركم للبعث ﴿مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ سَرَاعًا تَخْرُجُونَ﴾ للعرض، والحساب، والجزاء.

أبعد كل هذه الدلائل والآيات تكذبون بالبعث، ولا تؤمنون بهذا الإله، القادر، الواحد، سبحانه وتعالى!!

يقول الله تعالى:

﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَلْبٌ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢٧)

أي: أتكذبون ﴿وَلَهُ﴾ سبحانه ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ملكاً وتصرفاً.
 و﴿كُلُّ لَهٍ﴾ وحده ﴿فَلَنُنَوِّنَ﴾ خاضعون، فلم لا تصدقون، وتخضعون..
 خاصة: ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ لا غيره ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ بالبعث
 للحشر والحساب والجزاء، لا غيره ﴿وَهُوَ﴾ أي: ﴿أَهْوَنُ﴾ وأيسر ﴿عَلَيْهِ﴾.
 ﴿و﴾ أيضاً ﴿لَهُ﴾ سبحانه ﴿الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ الوصف الأعلى على السنة من ﴿فِي
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا غيره ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ لا غيره.
 إذا كانت الآيات السابقة تدل على قدرة الله ووحدانيته، فإن رب العزة سبحانه وتعالى
 يؤكد على موضوع الوحدانية، بضرب المثل التالي للمشركين:

﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي
 مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ
 الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٢٨)

يعني: ﴿ضَرَبَ﴾ الله ﴿لَكُمْ﴾ أيها المشركون ﴿مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ يدل على
 وحدانية الله ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ أي: متساوون..؟ وفي ذات الوقت ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾
 أن يقاسموكم فيه، أو يحاسبوكم عليه ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ معاشر الأحرار؟ طبعاً..
 لا، فكيف إذا لا ترضون هذا لأنفسكم من عبيدكم وهم بشر مثلكم، وترضون هذا لله
 من أصنام لا تعي ولا تعقل؟

﴿كَذَلِكَ﴾ التوضيح ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ والدلائل ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

على أية حال، ليست المسألة عند هؤلاء انعدام عقل، بل عدم استخدام العقل، يقول
 الله تعالى:

﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا
 هُمْ مِّنْ نَّصِيرِينَ﴾ (٢٩)

أي: ﴿بَلِ اتَّبَعَ﴾ هؤلاء ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وكفروا ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ وشهواتهم
 ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أناهم بذلك، أو دليل عندهم، وضلوا..

﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ؟ لا أحد.

﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ تَصْرِيكِ﴾ يدفعون عنهم عذاب الله حين ينزل بهم.

وبعد أن اتضحت جلياً قدرة الله ووحدانيته لكل ذي عقل، وبعد أن لم يستفد منها، أو ينتفع بها المكذبون المعاندون، يوجه الله تعالى المصدقين قائلاً سبحانه:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لَهُ مِنْ لِحَاقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

أي: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ يا محمد، ويا كل مؤمن ﴿لِلدِّينِ﴾ واستقم عليه، والتزم بتشريعاته وأحكامه، وكُنْ ﴿حَنِيفاً﴾ أي: مائلاً، ومبتعداً عن كل الأديان المحرفة، والممل الفاسدة.

حيث إن دين الله، الذي هو الإسلام: هو ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ﴾ أي: الخلقه ﴿الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾.

﴿لَا بُدَّ لَهُ مِنْ لِحَاقِ اللَّهِ﴾ أي: لا ينبغي لأحد أن يبدل أو يحاول أن يبدل هذه الفطرة أيضاً ﴿ذَلِكَ الدِّينُ﴾ الذي نطالبك بالاستقامة عليه، والالتزام به، هو ﴿الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ الذي لا انحراف فيه، ولا اعوجاج لمبادئه.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

ثم يكمل هذا التوجيه بقوله عز وجل:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّقَوْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾

الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾

يعني: وكونوا ﴿مُتَّبِعِينَ إِلَيْهِ﴾ مقبلين عليه، راجعين إليه في كل ما أمر به، وكل ما نهى عنه.

﴿وَاتَّقَوْهُ﴾ إذا أقبلتم عليه، ولا تأمنوا فتهملوا، بل خافوه، وداوموا على عبادته ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أدوها، وحافظوا عليها ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ في عبادتكم غيره سبحانه، بل كونوا موحدين، مخلصين لله في كل شيء .. يعني لا تكونوا

من المشركين ﴿الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ بدلوه، وحرفوه، وغيروه، وتفرقوا من بعده
﴿وَكَانُوا شِيعًا﴾ وأحزابًا وصار ﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾ منهم ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ من باطل
﴿فَرِحُوا﴾ به.

ثم يبين ربنا بعضًا من طبيعة الإنسان، فيقول جل وعلا:

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانِذْنَهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾

أي: أنه ﴿إِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾ وأصابتهم شدة، أو أية أزمة: ﴿دَعَوْا رَبَّهُمْ﴾
وأخلصوا له الدعاء ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ قاصدونه وحده.

﴿ثُمَّ إِذَا﴾ تغير حالهم، وذهبت عنهم الشدة، وزالت عنهم الأزمة: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ﴾ يعودون إلى ما كانوا عليه، و ﴿يُشْرِكُونَ﴾ بالله، دَعَهُمْ.. ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانِذْنَهُمْ﴾ من نعم ويكفروا - كذلك - بصاحب هذه النعم، كما يريدون، ويُملي عليهم هواهم.

نقول لهم: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ يا من كفرتم ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وبال كفركم، وعاقبة
شرككم، ثم يعجب ربنا من حالهم فيقول: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ حجة ودليلاً.

يعني: هل أنزلنا لهم دليلاً ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ ويدل لهم ويساعدهم في موقفهم
وتمسكهم ﴿بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ ..؟ كلا.. إن موقفهم هذا انحراف عن فطرة الله
الموَحَّدة. كذلك..

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾

أي: أنه ﴿إِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ منا، وأنعمنا عليهم بنعمنا: ﴿فَرِحُوا بِهَا﴾ فرح بطر وغرور ﴿وَأِنْ نُّصِبْهُمْ سَيْئَةً﴾ مصيبة، أو أزمة ﴿يَمَّا قَدَّمْتُ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: بسبب منهم، كمعصية، أو إهمال: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ من رحمة الله.

يعني: حال الناس عجب..!! فهم في المصائب، والأزمات بين رجاء وقنوط، وفي الرخاء بين غرور وكفران.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ ويعلموا ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه هو الذي ﴿يَسْطُرُ الرِّزْقَ﴾ يوسعهُ ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ ابتلاءه بالسراء من عباده !! وهو الذي ﴿يَقْدِرُ﴾ يضيق لمن يشاء ابتلاءه بالضراء من عباده؟ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

ما دام الله هو الباسط وهو القابض، ومنه تبارك وتعالى يكون الغنى، وبأمره يكون الفقر.. إذن:

﴿فَأَنبَأَ ذَا الْقُرْنَيْنِ حَقَّهٗ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٣٨)

يعني: فأعطى ﴿ذَا الْقُرْنَيْنِ﴾ فقيرًا كان أو غنيًا ﴿حَقَّهٗ﴾ من الصدقة، والصلة، والبر ﴿و﴾ كذلك ﴿الْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ وهو المسافر المحتاج إلى نفقة.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: إعطاء هؤلاء والإنفاق عليهم ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ وثوابه، ومرضاته ﴿وَأُولَئِكَ﴾ المعطون الخيرون ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ في الدنيا والآخرة.

هذا.. ﴿وَمَا ءَاتَيْتُمْ مِّن رَّبًّا لِّرَبُّوٓا۟ فِيٓ أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرُبُّوٓا۟ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا ءَاتَيْتُمْ مِّن زَكَاوٓةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ (٣٩)

أي: إذا لم تعطوا الأقارب والمساكين وأبناء السبيل، حقوقهم من أموالكم، على جهة الصدقة !! بل ﴿ءَاتَيْتُمْ﴾ أموالكم ﴿رَّبًّا لِّرَبُّوٓا۟ فِيٓ أَمْوَالِ النَّاسِ﴾ ويزيد لكم: ﴿فَلَا يَرُبُّوٓا۟ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: فلا يبارك الله فيه؛ حيث يمحقه، ﴿يَمَحُؤُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَتُ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

﴿و﴾ أما ﴿مَا ءَانَيْتُمْ مِّنْ ذَكْوَةٍ تَرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ وثوابه، ومرضاته، به: ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ الذين يفعلون ذلك ﴿هُمُ الْمُضْغِفُونَ﴾ المضاعفون لحساناتهم عند الله.

وهو.. ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَّنْ يَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِكَ مِّنْ شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٤٠﴾

يعني: ﴿اللَّهُ﴾ عز وجل وحده هو ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ لا شريك له في ذلك كله.

ف: ﴿هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ﴾ أيها المشركون ﴿مَّنْ يَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿مِّنْ شَيْءٍ﴾ ولو بسيط؟

لم يجيبوا.. ولن يجيبوا..!! ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به.

وعلى هذا فالشرك فظيع. وهذه بعض آثاره..

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٤١﴾

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ﴾ : أي: كثر وانتشر، وعلا صوته، وارتفع أصحابه، والفساد: هو الانحراف عن أوامر الله، وعدم إسعاد العباد، وعدم إصلاح البلاد.

نعم، ظهر الفساد ﴿فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي: صار عامًا، وذلك ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ من المعاصي والذنوب، والشرك بالله، وكان ذلك ﴿لِيُذِيقَهُمْ﴾ الله نتائج وآثار ﴿بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ من الخطايا. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن هذه المعاصي.

إن كانوا يشكون في هذا ويريدون دليلًا..

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّشْرِكِينَ﴾ ﴿٤٢﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ واعتبروا ﴿كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الَّذِينَ﴾ عصوا ﴿مِن قَبْلُ﴾؟ حيث أهلكناهم، وذلك بسبب أنه ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾.

وما دام الأمر كذلك..

﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدَّعُونَ﴾ (٤٣)

أي: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ﴾ أيها المؤمن ﴿لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ الذي هو الإسلام، واستقم عليه، والتزم بتشريعاته، وذلك ﴿مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ وهو يوم القيامة. ﴿يَوْمَئِذٍ يُصَدَّعُونَ﴾ يتفرون، وهم أهل الموقف.

﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ يَمْهَدُونَ﴾ (٤٤) ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ (٤٥)

يعني: ﴿مَنْ كَفَرَ﴾ منهم ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أي: عليه وبال كُفْرِهِ، وهو جهنم ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ منهم ﴿فَلَا نَفْسَ لَهُ يَمْهَدُونَ﴾ طريقهم إلى الجنة، وذلك: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ الله ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ على أعمالهم ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾. وأما الذين كفروا فـ ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ بل يعاقبهم.

كل ذلك في اليوم الآخر الذي ينبغي أن تؤمنوا به، وأن تستعدوا له، وللتدليل على ذلك اليوم، يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْزِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْنَعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٤٦)

أي: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ﴾ الدالة على وحدانيته، وكمال قدرته على بعث الخلائق، وحسابهم، ومجازاتهم: ﴿أَنْ يُرْسِلَ﴾ بقدرته ﴿الرِّيحَ﴾..

أولاً: ﴿مُبَشِّرَاتٍ﴾ بالمطر، الذي يغيثكم الله به من القحط والجفاف والمجاعات.

ثانيًا: ﴿وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ حينما ينزل المطر، وتنبت الأرض.
 ثالثًا: ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ﴾ ولتجري الفلك في البحر عند هبوبها ﴿بِأَمْرِهِ﴾ أي:
 بتصريفه وتدبيره، كل ذلك منه سبحانه وتعالى لكم. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ تعرفون هذه
 الإنعامات الإلهية و ﴿تَشْكُرُونَ﴾ الله عليها..

هذا، ومن المعلوم أن قضية اليوم الآخر والجزاء فيه والتدليل عليه، قضية في غاية
 الوضوح، حيث بُعِثَتْ بها الرسل، وأقيمت عليها الدلائل. يقول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنفَقْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُمُوا
 وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٧)

يعني: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ يا محمد ﴿رُسُلًا﴾ كثيرين ﴿إِلَى قَوْمِهِمْ﴾
 لدعوتهم إلى توحيد الله، وعبادته، والإيمان باليوم الآخر، والاستعداد له ﴿فَجَاءَهُمْ
 بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الدالة على صدق ذلك، فكذبوهم ﴿فَأَنفَقْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُمُوا﴾ أي:
 كفروا.

وذلك: بالإهلاك عليهم في الدنيا، ونصرنا المؤمنين عليهم ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا
 نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: هو حق أوجه على نفسه الكريمة تكرمًا وتفضلاً، كقوله تعالى:
 ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

والذي ينتقم من المجرمين، وينصر المؤمنين.. هو:

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ
 كِسْفًا فَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ
 يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٤٨) ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْسِيتٍ﴾ (٤٩)
 أي: هو ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ﴾ بقدرته ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ وتحركه ﴿فَيَبْسُطُهُ﴾
 الله ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ أي: في جهتها ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ على الوضع الذي يريده.

﴿وَيَجْعَلُهُ﴾ سبحانه ﴿كِسْفًا﴾ أي: قطعًا متفرقة ﴿فَرَى الْوَدْقَ﴾ أي: المطر
 ﴿يَخْرُجُ﴾ يسقط ﴿مِنْ خِلَالِهِ﴾ أي: من بين ثناياه ﴿فَإِذَا أَصَابَ﴾ الله ﴿بِهِ﴾ أي:
 بهذا المطر، وأسقطه على بلاد ﴿مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أن ينزله عليهم ﴿إِذَا هُمْ

يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٥٠﴾ ويفرحون بنزوله عندهم، وسقياهم منه، وانتفاعهم به ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ﴾ المطر، منذ مدة طويلة ﴿مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ آيسين من نزوله، فاقدين الأمل من سقوطه.

﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ ءَاثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيٍ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥١﴾﴾

﴿فَانْظُرْ﴾ أيها الإنسان ﴿إِلَىٰ ءَاثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ وهي المطر، و ﴿كَيْفَ يُحْيِي﴾ الله به ﴿الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فتنبت وتثمر للناس ما يحتاجون إليه، ويعيشون عليه!! لتعرف قدرة الله سبحانه على البعث، حيث ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ الذي فعل هذا ﴿لَمُحْيٍ الْمَوْتَىٰ﴾ وباعثهم من قبورهم ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

هذا.. ﴿وَلَيْنَ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ أي: ﴿وَلَيْنَ أَرْسَلْنَا﴾ لهؤلاء الذين يستبشرون بالمطر ﴿رِيحًا﴾ مصفراً لا يمطر ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ وأصيبوا بآثار اصفراره من الجفاف وغيره.. ﴿لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ بكل نعم الله، بدل أن يصبروا على بلائه لهم بقلة المطر، ويَجِدُوا في أعمالهم، ويتوكلوا عليه.

مثل هؤلاء في الناس هم موتى القلوب:

﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٤﴾﴾

يعني: فلا تحزن لعدم إيمانهم؛ إذ هم موتى ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَىٰ﴾ وهم صم عن الحق، وأنت ﴿لَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا﴾ جميعاً هؤلاء وهؤلاء ﴿مُدْبِرِينَ﴾ معرضين عنك.

﴿و﴾ أيضاً ﴿مَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ أي: كذلك لا تقدر على هداية العميان إلى الحق وردهم عن ضلالتهم، بل ذلك إلى الله، فإنه تعالى بقدرته يُسمع الأموات أصوات الأحياء إذا شاء، ويهدي من يشاء ويضل من يشاء، وليس ذلك لأحدٍ سواه.

﴿إِنْ تَسْمِعْ﴾ أي: أنت لا تسمع، ولا يسمع منك سماع تدبر ﴿إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ وهو القرآن، ﴿ف﴾ هؤلاء ﴿هُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: منقادون للحق، خاضعون له، عاملون به.

يلاحظ: أن الله عز وجل أعاد ذكر بعض آياته في الآفاق، بقوله تعالى - كما استمعنا - منذ قليل ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُبْرِ سَحَابًا﴾ [الروم: ٤٨] الآية...!! وهنا سيعيد سبحانه أيضًا بعض آياته في الأنفس، وذلك لمزيد التأكيد على وحدانيته، وقدرته، وإثبات اليوم الآخر. حيث يقول الحق جل وعلا:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ (٥٤)

يعني: هو ﴿اللَّهُ الَّذِي﴾ بقدرته ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾ ماء مهين. ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ﴾ آخر، وهو الطفولة ﴿قُوَّةً﴾ وهي قوة الشباب. ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ الشباب ﴿ضَعْفًا﴾ وهو ضعف الكبر ﴿وَشَيْبَةً﴾ وهو الهرم، سبحانه ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ من الضعف والقوة، والشباب والهرم، ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوال خلقه ﴿الْقَدِيرُ﴾ على تغيير هذه الأحوال. ولما فصلت الآية في أحوال بدء الخلق، جاء التفصيل بعض الشيء في أحوال إعادة الخلق.. على النحو التالي:

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيُشَاءُ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مُعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧)

يعني: ويوم تقوم الساعة ﴿يُقْسِمُ﴾ يحلف ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ الكافرون، ولكن علام يحلفون..؟ يحلفون على أنهم ﴿مَا لِيُشَاءُ﴾ ما عاشوا في الدنيا، أو ما بقوا في قبورهم ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ واحدة ﴿كَذَلِكَ﴾ العُمى عن الصدق ﴿كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ يصرفون عن الإيمان بيوم البعث، هذا في الدنيا، وأما ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ من املائكة وغيرهم، فيقولون غير ذلك، إذ يقولون لهم: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ﴾ مكثتم ﴿فِي﴾

كَتَبَ اللَّهُ ﴿وَقَضَاهُ﴾ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ ﴿أَي: من يوم خُلِقْتُمْ إِلَى أَنْ بُعِثْتُمْ. ويلاحظ: أن أهل العلم والإيمان هم الذين كانوا يعلمونهم بأمر هذا البعث قبل ذلك في الدنيا أيضًا، ثم يوبخونهم على إنكارهم السابق ليوم البعث هذا، قائلين لهم: ﴿فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ أنتم فيه الآن ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنه أت، لعنادكم وكفركم، وتكذيبكم الرسل، ولكن ماذا يفيد العتاب، أو التوبيخ، أو الاعتذار؟ لقد فات الأوان!!

﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾: ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعَذِرَتُهُمْ﴾ عن كفرهم. ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: لا يطلب منهم الاعتذار ولا ينفعهم الاعتذار إذا اعتذروا!!

ولكن هل بقي مجال للحديث عن الاعتذار؟ أبدًا والله، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾

يعني: ﴿وَلَقَدْ﴾ وضحنا للناس الحق، وضربنا لهم عليه الأمثال؛ ليفهموه، فيتبعوه. ولكن الذين كفروا مهما جئتهم بالآيات والدلائل يقولون ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ وهذا زور وباطل. ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ﴾ ويختم ﴿عَلَى قُلُوبِ﴾ هؤلاء ﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحق ويعاندونه، ويجادلون فيه.

لذلك: ﴿فَأَصْبِرْ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَا يَسْتَخَفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ ﴿٦٠﴾ أي: ﴿فَأَصْبِرْ﴾ على عنادهم وتكذيبهم ﴿إِنْ وَعَدَ اللَّهُ﴾ بنصرك على أعدائك، وإظهار دين الإسلام على كل الأديان ﴿حَقًّا﴾ ووعد من الله، ووعد الله لا يتخلف. ﴿وَلَا يَسْتَخَفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ أنك على الحق، وأن الله ناصرك، أي: لا يحملونك على استعجال النصر، أو الجزع مما يقولون لك أو عنك، فأنت بعون الله منصور، ودينك بإذن الله منصور.